التراث الذاكرة والهوية: دراسة في العلاقات المتبادلة

الطالبة الباحثة بسلك الدكتوراه: إيمان وصفي
مركز دراسات الدكتوراه: الإنسان والمجال في العالم المتوسطي
تكوين الدكتوراه: تاريخ الزمن الراهن
جامعة محمد الخامس الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال
المغرب

الملخص:

التراث الثقافي هو الذاكرة الحية للمجتمع والمرآة التي تعكس هويته الوطنية. يشكل التراث، سواء المادي أو اللامادي، جسرًا يربط الماضي بالحاضر والمستقبل، من خلال تخزين وتداول الذكريات الجماعية التي تعزز الانتماء والارتباط بالهوية. فالعلاقة بين التراث والذاكرة والهوية علاقة متبادلة حيث يغذي التراث الذاكرة الوطنية، والذاكرة بدورها تصنع الهوية. كما أن الحفاظ على التراث يضمن استمرارية هذه الذاكرة ويعزز التماسك الاجتماعي، فيما يشكل فقدان التراث فقدانًا للذاكرة والهوية معًا. لذلك، يعد التراث ركيزة أساسية في بناء المجتمعات وتعريف ذاتها، ويجب العمل باستراتيجيات مدروسة لحمايته كخيار ضروري لصيانة الهوية الوطنية والذاكرة التاريخية.

Abstract

Cultural heritage serves as the living memory of a society and a mirror reflecting its national identity. Whether tangible or intangible, heritage acts as a bridge connecting the past, present, and future by preserving and transmitting collective memories that reinforce a sense of belonging and attachment to identity. The relationship between heritage, memory, and identity is reciprocal: heritage nourishes national memory, which in turn shapes identity. Preserving heritage ensures the continuity of this memory and strengthens social cohesion, whereas the loss of heritage equates to the loss of both memory and identity. Therefore, heritage is a fundamental pillar in building communities and defining their self-identity, necessitating well-planned strategies for its protection as an essential means to safeguard national identity and historical memory.

الكلمات المفتاحية: التراث الثقافي–الهوية– الذاكرة

منهج البحث:

ولإنجاز هذا البحث والإجابة على إشكاليته إرتأينا تقسيمه إلى محورين:

- المحور الأول: التراث، الهوية، الذاكرة، مقاربة مفاهيمية
- المحور الثاني: التراث في علاقته بالذاكرة والهوية.

مقدمة:

يعد التراث أحد المفاهيم المركزية في الدراسات الأكاديمية المعاصرة، إذ يتجاوز كونه مجرد مخزون من المنجزات المادية أو الرمزية ليصبح إطاراً تفسيرياً لفهم العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر والمستقبل. فالتُّراث يُشكّل مرجعية تاريخية وثقافية أصيلة تسهم في توليد المعارف وتثبيت الهوية وتقوية الشعور بالانتماء، إذ يضم مجموع المنجزات المادية والفكرية التي راكمتها المجتمعات عبر الأجيال، ليشكّل بذلك وحدة متكاملة تُعدُّ أساساً لكل أمة وتمنحها خصوصيتها وتميّزها عن غيرها.

تتجلى أهمية التُّراث في كونه ذاكرة جماعية تحفظ تجارب الشعوب وخبراتها، وتُسهم في بناء الحضارة عبر تراكم الخبرات والمعارف.

فالتُّراث ليس فقط حافظة للهوية، بل هو أيضاً رافد أساسي للإبداع والتجدد الحضاري، إذ يُمكّن المجتمعات من فهم ذاتها وتحديد موقعها في العالم، ويُعدّ سنداً للإحساس بالذات والانتماء، كما يُعزز من قدرة الأفراد والجماعات على مواجهة تحديات الحاضر واستشراف المستقبل.

من منظور أكاديمي، يُنظر إلى التُّراث باعتباره مقاربة متعددة الأبعاد، تربط القيم والمعايير، والهوية (كإحساس بالانتماء والخصوصية)، والذاكرة (كحافظة للتجارب المشتركة)، هذه المقاربة تسمح بفهم أعمق لدور التُّراث في تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية، وتبرز الحاجة إلى حمايته وتثمينه كشرط أساسي لاستمرارية المجتمعات وتطورها.

إن التفاعل بين التُّراث والهوية والذاكرة يُبرز كيف أن المجتمعات التي تعي قيمة إرثها الثقافي قادرة على تحويله إلى قوة دافعة للتنمية والإبداع، مع التأكيد على أن فقدان التُّراث يُفضي إلى إفقار الذاكرة الجماعية ويهدد بتآكل الهوية الحضارية للأمم. لذلك، تكتسي الدراسات الأكاديمية حول التُّراث أهمية بالغة في ظل التحولات المعاصرة، حيث يُصبح التُّراث ليس فقط موضوعاً للبحث، بل أفقاً للتفكير في قضايا التعدد الثقافي، والاستمرارية الحضارية، وبناء مستقبل أكثر تجذراً وانفتاحا.

وفي ظل التعقيد والتداخل المستمر بين التراث والهوية والذاكرة، يبرز السؤال الإشكالي التالي: كيف يمكن استيعاب طبيعة الترابط بين هذه المفاهيم المتشابكة، وما هي الآليات التي تسمح بفهم تأثير كل منها على الآخر في تشكيل الوعي الجماعي والحضاري؟

المحور الأول: التراث، الهوية، الذاكرة، مقاربة مفاهيمية

– مفهوم التراث وأنواعه:

التراث في اللغة العربية مأخوذ عن جدر « ورث » وهي تدل في مجملها على معاني البقاء، وانتقال الملكية والنسب وفي معجم لسان العرب نجد « ورث »: الوارث: وهي صفة من صفات الله عز وجل وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويقال وَرَثْتُ فلاناً من فلان أي جعلت ميراثه له، وأَوْرَثَ الميت وارثه ماله أي تركة له[1].

فالتراث من خلال هذا التعريف هو ما يخلفه الميت لورثته من تركة، سواء أكانت تلك التركة مادية كقوله تعالى: ﴿**وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً**﴾[2] وقد فسر الزمخشري عبارة أكلا لماً بأنهم كانوا يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم فالتراث هنا هو المال الذي تركه الهالك وراءه[3]. أو أن يكون هذا التراث معنوياً ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾[4] ويقصد بالتراث هنا النبوة والفضيلة والمعرفة. ومنها تستنتج أن التراث يعني إنتقال الملكية (مادية/معنوية) من شخص لآخر التراث وهو بهذا يحمل معاني الإتصال والربط والإستمرار. وهو خلاصة ما تخلفه الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة (...) ليضيف إليه جيل بعد جيل من خيرات حياته[5].

هذا ويمكن أن نلاحظ بالإضافة إلى ما تقدم أن مصطلح التراث بدأ يستخدم بعيداً عن الأصل اللغوي والقرآني من قبل المفكرين الاجتماعيين العرب في النصف الأول من القرن العشرين كمرادف للمصطلح الإنجليزي (heritage)، وبهذا أطلق المصطلح للتعبير عن "نتاج الحضارة

في جميع ميادين النشاط الإنساني من علم وفكر وأدب وفن ومأثورات شعبية وآثار ومعمار وتراث فلكلوري وإجتماعي واقتصادي"[6]، ويعرف "علي أمليل" التراث بمعناه العام بكونه تداول الأنماط خاصة في الحياة والوجدان والتفكير وانتقالها خلال فترة طويلة من التاريخ[7] أما "حسن حنفي" فقد عرف التراث بأنه "كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة"[8]. أما عابد الجابري فقد عرف التراث بأنه: "كل ما خلفه الماضي ولكنه بقي حيّاً في الحاضر"، وبذلك اشترط الجابري في كل ما يصنف كتراث أن يكون حاضراً وذا تأثير، على أساس أن الموروث إذ فقد فاعليته في واقعنا الحاضر أصبح خارج التاريخ، غير أنه يحصر التراث في الموروث الثقافي، والفكري والأدبي، والفني، ويعتقد أن هذا المعنى لم يكن حاضراً في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم[9]. نستنتج من خلال ما سبق أن التراث وبصفة عامة هو نتاج الإبداعات المادية والمعنوية لمجتمع من المجتمعات، يتوارثه الخلف عن السلف، ويعكس تجاربهم ورغباتهم ومظاهر عيشهم وسلوكاتهم وحجم إحتياجاتهم ونمط تفكرهم، وبالتالي هو تجسيد للإرث التاريخي. والوسيلة الأساس التي تحدد مقومات الوجود الحضاري وإبراز الهوية، ومن هذا المنطلق فهو مرآة للماضي، ومورد يمكن النهل منه لمعرفة الحاضر.

2- أنواع التراث:

تغير مضمون المصطلح "التراث الثقافي" تغيراً كبيراً خلال العقود الأخيرة، ويعود ذلك جزئياً إلى الوسائل التي طورتها منظمة اليونسكو للحفاظ عليه، إذ لا يتوقف التراث الثقافي عند المعالم ومجموع القطع فقط، بل يشمل جل التقاليد وأساليب المعيشة الموروثة من أسلافنا والمنقولة إلى أبنائنا كالتقاليد الشفوية وفنون الأداء، والممارسات الاجتماعية، والشعائر، والمناسبات الإحتفالية والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون والمعرفة والمهارات اللازمة لإنتاج الحرف التقليدية. ولأن التراث الثقافي مورد غير متجدد وجبت حمايته من قبل جميع الفعلين داخل المجتمع عن طريق التوعية، وإنقاذ الصكوك القانونية ونشر المعرفة والقيم، ووضع وثائق وقوائم وجرد له.

- وفي هذا الإطار يمكن أن نميز بين نوعين من التراث.

أ- التراث المادي:

عرفته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (UNESCO) في نونبر 1972 من خلال اتفاقية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، على أنه:

أولاً- الآثار: ونقصد بها الأعمال المعمارية، وأعمال النحت، والتصوير على المباني، والعناصر أو التكاوين ذات الصفة الأثرية، وكذا النقوش، والكهوف، ومجموع المعالم التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ أو الفن، أو العلم.

ثانياً- المجمعات: ونقصد بها مجموعات المباني المنعزلة أو المتصلة التي لها بسبب عمارتها أو تناسقها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ أو الفن، أو العلم.

ثالثاً- المواقع: ونقصد بها أعمال الإنسان أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة النظر التاريخية أو الجمالية أو الإيثنولوجية (وتعني علم الشعوب والقبائل) والأنتروبولوجية (عادات هذه الشعوب)[10].

ب- التراث غير المادي:

- عرفته الاتفاقية الأممية الخاصة بحماية التراث الثقافي غير المادي بأنه مجموعة من الممارسات والتصورات، وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية - التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحياناً الأفراد، جزءاً من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها

وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها وهو ينتمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من تم التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية[11].

II- التراث والمفاهيم المتقاطعة معه:

مفهوم الهوية:

يعتبر مفهوم الهوية واحداً من أكثر المفاهيم المطروحة جدلاً وإثارة للنقاش نظير ما يحتويه من دلالات فكرية، وسياسية، واجتماعية تمس عمق المجتمع، وجوهره.

وعند البحث في أغلب المعاجم العربية القديمة لم نجد تعريفاً للهوية، "لأن كلمة الهوية هي مصطلح حديث منسوبة إلى "هو" تحديداً وهي تعني إدراك تميز الهو عن الآخر وكلمة "هو" في هذا السياق ليست (هو) ضمير الغائب المعروف باللسان العربي الدال على الحقيقة المشخصة (الشخص) بل هي كلمة دالة على التمايز أو السمات في أمة دون غيرها من الأمم"[12] أما في معجم الوسيط فالهُوِيَّة هي حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره، وهي أيضاً بطاقة يُثبت فيها اسم الشخص، وجنسيته، ومولده، وعمله"[13].

ويحيل مصطلح الهوية أيضاً من الناحية اللغوية على العناصر التي تجعل الشيء مطابقاً لذاته، وتميزه عن غيره فهوية شخص أو مجتمع ما.

تشير إلى المميزات الثابتة لهذا الشخص أو هذا المجتمع، بقطع النظر عن التغيرات والتطورات التي يكون عرضة لها. ولا يعني التركيز عن الثابت في مقاربة الهوية، إغفال التحولات المستمرة التي يتعرض لها كيان هوياتي ما، إذ لا توجد هوية خالصة إلا في إطار بعض المجتمعات الحديثة، فإن تميزها الهوياتي يبقى قائماً رغم تأثرها اللغوي أو الثقافي أو الحضاري أو الديني أو السياسي، بغيرها من المجتمعات التي تفاعلت معها نتيجة عوامل تاريخية وجغرافية[14].

ومن المفاهيم التي قدمت للهوية الثقافية ما تبنته منظمة اليونسكو بأن الهوية الثقافية تعني أولاً وقبل كل شيء أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية، بما لها من قيم أخلاقية تميزها، ويتضمن ذلك أيضاً الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأسلوب حياتها، وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه، أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلي، وتعد بالنسبة لكل فرد منا نوعاً من المعادلة الأساسية التي تقرر – بطريقة إيجابية أو سلبية – الطريقة التي ننتسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة[15].

وقد ميز محمد عابد الجابري بين ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية: فردية وجماعية، ووطنية قومية. والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد[16] أساساً بنوع الآخر الذي تواجه. إن الهوية الثقافية كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهز ونهائياً. فهي تصير وتتطور، إما في إتجاه الإنكماش وإما في اتجاه الإنتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، إنتصاراتهم، وتطلعاتهم، وأيضاً بإحتكاكها سلباً وإيجاباً مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما.

وعلى العموم، تتحرك الهوية الثقافية في ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد.

- فالفرد داخل الجماعة الواحدة قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدينة (حزباً أو نقابة إلخ...) هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة....
- والجماعات داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة.
- والشيء نفسه يقال بالنسبة للأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى غير أنها أكثر تجريداً وأوسع نطاقاً، وأكثر قابلية لتعدد والتنوع والاختلاف.

مفهوم الذاكرة وآلياتها:

تطرح الذاكرة عدة إشكاليات نظرية ومنهجية لكونها مفهوم معقد يشمل مراحل متعددة ومساراً طويلاً ومركباً من العمليات والآليات منذ وقوع الحدث وتخزينه إلى إنتاج وإعادة إنتاج الذكرى وتمثلها واستحضارها وكتابتها.

وليس من البساطة والسهولة تقديم تعريف للذاكرة لأنها تتميز بالكثير من الإلتباس على صعيد المفهوم وبالبحث عن كلمة ذاكرة Mémoireفي بعض المعاجم والدراسات وجدنا عدة تعريفات لها.

إنها حسب معجم لروس Larousse "القدرة على حفظ وتذكر الأحاسيس المحققة، الأفكار والمعارف الداخلية المكتسبة" و"الوظائف النفسية (تثبيت، حفظ، تعرف، تحديد الذكريات) التي تسمح للفرد بتمثل الماضي"[17] وحسب معجم أدبي هي "قوة عقلية قادرة على الاحتفاظ بالأحداث الغابرة وعلى إحضارها عند الاقتضاء[18] ومن منظور معجم فلسفي، كل ما يخطر بالذهن من الحالات الماضية، حركات كانت أو صوراً ذهنية، فإما أن يكون استحضارها تلقائياً فيطلق عليه اسم (الذكر) وإما أن يكون إرادياً فيطلق عليه إسم التذكر [...] وقد يطلق هذا اللفظ على ما نستعيده من الصور النفسية [...] دون الحركات المادية كما في الذاكرة النفسية"[19].

وحسب إحدى الدراسات فإن الذاكرة هي القدرة على تخزين معلومة ما، ثم إعادة تشكيلها والتعرف عليها في غياب الخطاب الأصلي، وهذا التعريف يفرض وجود ثلاثة مكونات هي دعامة، ورمز، ومعلومة أو خطاب"[20] ومن منظور دراسة أخرى هي "قدرة جهاز للمعالجة الطبيعية أو الإصطناعية على ترميز المعلومات المستقاة من المحيط، وتخزينها بشكل ملائم في أحياز معينة، ثم استرجاعها واستعمالها في نشاطات وعمليات لاحقة"[21] ويتضح من التعاريف السالفة ومن بعض الدراسات النظرية أن عمليات الذاكرة تمر من مسار معقد يتمثل في إنتاج انطباعات معينة، وإعادة إنتاجها، والتعرف عليها. وبدون أحد هذه المراحل الثلاث يصبح عمل الذاكرة مستحيلاً. ورغم ذلك يلاحظ أن العديد من الدراسات تقتصر فقط على دراسة المرحلة الثالثة، أي إعادة إنتاج الذكريات والتعرف عليها[22].

1-4- آليات الذاكرة:

أ- الإدراك:

الإدراك "عملية عقلية نعرف بها العالم الخارجي وهي تعتمد على الإحساسات المباشرة بالإضافة إلى مجموع العمليات العقلية المختلفة مثل التذكر والتخيل والحكم". وحسب الفيلسوف هنري بيرگسون (Henri Bergson) فالادراك الحسي هو "أساس معرفتنا للأشياء. فضلاً على أنه رؤية داخلية ذاتية تكمن في الإختزال الذي تنجزه الذاكرة". ويعتبر بيرگسون أن الفارق بين الإدراك والذاكرة هو من حيث الطبيعة، وليس من حيث الدرجة، فليست الذكريات إدراكات ضعيفة، وليست الإدراكات ذكريات قوية، ويتمثل التمايز بينهما في أن الإدراك يتجه نحو الحاضر، في حين أن الذاكرة تتجه نحو الماضي.

"تشكل الذاكرة أساس الإدراك المباشر، وتمثل المعبر الرئيس للوعي الفردي. وعلى العموم فلا وجود لإدراك حسي غير مشوب بالذكريات[23].

الذكرى والتذكير:

بعد إدراك الحدث يتحول إلى انطباعات أولية، ويتم تخزينه في الذاكرة وإعادة إنتاجه لينتقل من الذكرى الخالصة إلى "الذكرى الصورة"[24]، أي إلى تمثل. وهنا ينبغي الإشارة إلى التمايز بين الذكرى والتذكير ويتمثل في سكونية الذكرى، كصورة آنية لشيء غائب حدث في الماضي، وديناميتها الكائنة في التذكير[25].

ونميز في هذا الأخير بين التذكير الفوري العفوي، الذي يمثل الدرجة الصفر من البحث عن الذكرى، والتذكير المثابر الذي يمثل شكله السريع[26]، وقد إعتبر مارك بلو(Marc Bloch) أن "كل ذاكرة جهد"[27] والتذكير عملية معقدة قد تنجح أو لا تنجح. وفي حالة النجاح في استحضار الذكرى فإن ذلك هو ما يطلق عليه التعرف (Reconnaissance) الذي يصفه بول ريكور(Paul RICOEUR) بأعجوبة صغيرة، أعجوبة الذاكرة الموفقة[28].

التعرف:

التعرف هو الشعور بالألفة نحو شيء ما[29] وما ينجز على الذكريات في شكلين "فحيناً في الحركة نفسها [...] وتارة بعمل عقلين يبحث داخل الماضي، من أجل توجيه الحركة نفسها، على التمثلات الأكثر قدرة على الإندماج داخل الوضعية الحاضرة"[30] وإذا كان التعرف هو الفعل الملموس الذي بواسطته نأتي بالماضي إلى الحاضر، فإن التعرف على إدراك حاضر يكمن في دمجه بواسطة الفكر في محيط قديم. التعرف إذن هو أن نضيف إلى إدراك حاضر صوراً سابقة بتزامن معه[31] تساعد على استدعاء الذكريات. ويتم التعرف "بواسطة الحركات عندما تصدر عن الشيء، وبواسطة التمثلات عندما تصدر عن الذات[32].

التحديد والموضوعة:

وإذا كان التعرف أداة مساعدة على معرفة الذكريات فإنه يسبق كل محاولة وبدء في تحديدها. والتحديد أو الموضعة، بصفة عامة هو "العملية السيكولوجية التي بمقتضاها يضع الفرد أحد أهم مصادر الخبرة في نطاق زماني أو مكاني بالنسبة لجسم هذا الفرد[33].

النسيان:

وفي حالة فشل التذكر فهذا ما يسمى النسيان. وغالباً ما يعتبر نقيضاً للذاكرة ومنفصلاً عنها، لكنه في حقيقته من آلياتها وخصائصها.

إن الذاكرة هي القدرة على التمثل الإنتقائي لأحداث الماضي، سواء كانت هذه الانتقائية إرادية أو لا إرادية. ويتبين من ذلك أن الذاكرة والنسيان ظاهرتان متلازمتان ذلك أن كل تمثل ذاكري يحمل في طياته نسياناً لأحداث من هذا الماضي. وبدون نسيان ناقص أو كامل لكثير من حالات الوعي لا يمكن التذكر، لهذا، وباستثناء حالات معينة فالنسيان ليس مرضاً للذاكرة، ولكنه من شروطها، بل وضرورة[34].

أزمنة الذاكرة:

أما في ما يخص تعدد أزمنة الذاكرة، فالملاحظ، كما قال بول ريكور، أن الذاكرة تشكل" لغز حضور الغائب". لهذا فإنها تطرح مأزقاً مزدوجاً، يتمثل في كونها صورة حاضرة وغائبة في ذات الوقت".

وقد توصل بول ريكور، بناء على دراسته للفلسفة الإغريقية خاصة لأفكار أرسطو، إلى التفريق بين بعدين في الذاكرة، الأول يتعلق بـ"قدم الشيء الذي يتم تذكره" أي الذكرى، والبعد الثاني يتمثل في كون "استحضار هذا الشيء يتم في الحاضر"[35].

وهذا ما يستلزم التمييز بين أزمنة الذاكرة، فنجد زمن وقوع الحدث وتخزينه وتحوله إلى إدراك وانطباع، وزمن التذكر والاستعارة الذي يتم دائماً في الحاضر ويتأثر بمعطياته، وهناك الفارق الزمني الذي يوجد بين الزمنين ويشكل المسار الذي تقطعه عمليات الذاكرة والذي يؤثر في طبيعته التمثلات الذاكراتية[36].

الذاكرة الفردية والجماعية:

هناك إشكالية أخرى ذات صلة بالمفهوم والمقاربة، هي تضارب بين مفهومي الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية. وينقسم الدارسون للذاكرة باختلاف تخصصاتهم، سواء كانوا علماء البيولوجيا أو النفس أو الاجتماع أو الفلسفة...، إلى أصحاب منظورين الأول داخلي والثاني خارجي[37].

ويعتبر أصحاب المنظور الداخلي أن الذاكرة فعل ذاتي وفرد ي محض. ويعد ايدموند هويسرل (Edmunal Husserl)، صاحب فلسفة الفينومينولوجيا، من رواد هذا المنظور. تعتبر هذه الفلسفة أن الذكرى والإدراك وكل أفعال الذكرى هي معيشات ذاتية"[38].

ويعتبر موريس هاليفاكس، السوسيولوجي الفرنسي، من رواد المنظور الخارجي للذاكرة. يقوم منظوره على رد الذاكرة إلى العوامل السوسيولوجية وإعتبارها إمتلاكاً جماعياً للماضي، وليس نتاجاً للوراثة البيولوجية، أو الملكات النفسية أو الخصائص الفردية.

وذهب في أطروحته إلى حد التشكيك في الذاكرة الفردية، واعتبارها مجرد وجهة نظر في الذاكرة الجماعية وقد وجهت نظريته بانتقادات حيث وصفت بأنها تعاني من الهجانة على المستوى المفاهيمي، بل لم تكن حتى مقبولة بما فيه الكفاية لدرجة أنها ظهرت وكأنها تسند الإدعاء الهيمني للسوسيولوجيا في مواجهة التاريخ نفسه"[39].

– وفي هذا الصدد قدم ريكور حلاً توفيقياً للجمع بين المنظورين، باعتماد مفهوم الانتساب (Attribution)، الذي استقاه من الفلسفة التحليلية للظواهر الطبيعية وفي هذا الصدد يقول إن الذاكرة "يمكن أن تنسب مبدئياً إلى كل الضمائر أنا، هي / هو، نحن، هم إلخ.

إن القول بالانتساب المتعدد للذكرى لا يختلف عن الإنتساب المتعدد الذي يحتمله أي فكر أو شعور أو وجدان"[40].

وبناء عليه، فالمقاربة المعتمدة في هذا البحث تنطلق من الإقرار بوجود الذاكرتين الفردية والجماعية. فالفرد يمتلك ذاكرته الفردية التي تعني قدرته الفردية على تخزين وإعادة بناء واستعادة أحداث الماضي وتمثلها. ولكنه يتأثر في ذاكرته ومختلف أفعالها بمحيطه الاجتماعي وبالطريقة التي يتمثل بها المجتمع ماضيه.

التخصصات التي تدرس الذاكرة:

تتعدد التخصصات التي تدرس الذاكرة ومن أبرزها البيولوجيا والفيزيولوجيا، وعلم النفس والسوسيولوجيا والتاريخ والسياسة إضافة إلى النقد الأدبي. ويلاحظ عموماً أن هذه التخصصات تدرس موضوع الذاكرة كوظيفة بيولوجية مرتبطة بعمل الدماغ، وهم بذلك لا يستحضرون العوامل النفسية والإجتماعية والسياسية والتاريخية المحيطة بها، والتي تؤثر فيها كوظيفة بيولوجية.

أما المقاربة النفسية فتركز على البعد الذاتي الفردي النفسي للذاكرة، باعتبارها طريقة لمعالجة المعلومات، وما يرتبط بها من عمليات نفسية ومعرفية تتمثل في الترميز والتخزين والإنطباع والاستحضار والتعرف، مستبعدة بذلك خصائصها الجماعية والسياسية[41].

وترتبط سوسيولوجيا الذاكرة بالمعطى الإجتماعي كمحدد لظهورها وتطورها وتفاعلاتها. وبالتالي فعند دراستها، تركز على الذاكرة الجماعية وتغفل أبعادها الفردية. أما التاريخ والعلوم السياسة فإنهما غالباً ما يركزان على استخلاص الأحداث التاريخية والسياسية من الذاكرة دون الأخذ بعين الاعتبار في بعض الحالات، العوامل النفسية والسوسيولوجية والسياسية التي تعتبر محددات أساسية لما تنتجه الذاكرة من تمثلات.

ولتجاوز هذه المقاربات الجزئية والأحادية ينبغي اعتماد مقاربة شمولية متكاملة و"متعددة التخصصات"، لفهم كل الجوانب المرتبطة بالذاكرة وكافة خصائصها الفردية، واستخلاص العوامل المرتبطة بالمحيط والسياق الذي تتم فيها عمليات التذكير، والتي تؤثر في عملها و ميكانزماتها وتمثلاتها[42].

الذاكرة التاريخية:

شهد القرن العشرون أحداثاً على قدر كبير جداً من الأهمية والخطورة والتأثير أدت إلى تحولات في الاقتصاد والسياسة والثقافة والمجتمعات، كان من نتائجها العودة المكثفة إلى الذاكرة، خاصة خلال النصف الثاني من هذا القرن؛ وفي هذا السياق أصبحت الذاكرة وعلاقتها بالتاريخ من المواضيع الجديدة في الدراسات التاريخية الراهنة، خاصة في بعض الدول الغربية، وأصبحت الذاكرة تدرس انطلاقاً من "منظور تاريخي". وقد عمل مؤرخون غربيون على دراسة تاريخ تمثل الشعوب والأفراد لماضيهم منذ القدم إلى اليوم، وكيفية اشتغال الذاكرة الجماعية وتحولاتها، وصلت ذلك بالتاريخ المتخصص[43].

يقدم إما جينج وانج ثلاث مقاربات لفهم الذاكرة التاريخية ووظيفتها في تكوين هوية الجماعة: البدائية، البنيوية والذرائعية. حيث يؤكد البدائيون أن الذاكرة الجماعية والهوية تتشكل على أساس العلاقات البدائية كالدم، والقرابة، واللغة والتاريخ المشترك، أو بمعنى آخر، فإن الذاكرة تنتقل بشكل عابر للأجيال. حيث تنتقل الذاكرة من جيل إلى آخر لتخبر الأحفاد والأجداد من هم. وترسم خريطة المستقبل بناء على الماضي.

وعلى جانب آخر، ينظر البنيويون للهوية والذاكرة على أنها مصطنعة، حيث إننا نحن المعاصرين من نبني ماضينا بشكل تلقائي ولأسباب متنوعة. حيث إن الذاكرة الجمعية تعدد بناء ذكرياتها لتتوافق مع الأفكار والشواغل المعاصرة. ووفقاً لأندرسون فإن اللغات المطبوعة وضعت حجر الأساس للوعي القومي من خلال إنشاء قنوات موحدة للتواصل، وأن الرأسمالية المطبوعة تربط الناس في المناطق المختلفة بمجتمع قومي أكبر ومتخيل.

كما يتعلم الناس تاريخ مجموعاتهم ليس فقط من خلال آبائهم وأجدادهم، ولكن أيضاً من المدارس وكتب التاريخ ووسائل الإعلام. وترى الذرائعية أن الدافع وراء التعبئة الإثنية يكمن في المصلحة الفردية أو الجماعية، حيث غالباً ما يستخدم الماضي بشكل فعال كأداة للنخب لتوطيد قوتهم وكسب الدعم الشعبي. وعليه فإن التعليم الحكومي هو وسيلة لغرس القيم الاجتماعية المهيمنة بهدف إنتاج مواطنين موالين لهم هوية مشتركة[44].

–ويرى المؤرخ الفرنسي بيير نورا أن باريس وقصر فرساي وبرج إيفل من أماكن الذاكرة في فرنسا وأيضاً العلم، وكتاب الفيلسوف الفرنسي ديكارت تندرج تحت مسمى أماكن الذاكرة الفرنسية ويعتقد بيير نورا أن بدايات تشكل الذاكرة الفرنسية وتبلورها ترجع إلى عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة أي القرن التاسع عشر الميلادي ففي تلك الحقبة قامت الذاكرة القومية بتأسيس الهوية الجمعية الفرنسية[45].

ويحدد بيير نورا ثلاثة أبعاد لأماكن الذاكرة البعد المادي، البعد الوظيفي[46]، البعد الرمزي، والبعد المادي لأماكن الذاكرة تكون قابلة للمس مثل اللوحات الفنية والكتب، أحداث تاريخية حاسمة أو دقائق صمت لإحياء ذكرى تمثل مقطع مادي محدد من فترات الزمن تمتلك بعداً وظيفياً بمعنى أنها تمارس وظيفة ضمن المنظومة الاجتماعية ولكي ترتقي هذه التموضعات إلى مرتبة أماكن الذاكرة يجب أن تتوفر أيضاً على بعد رمزي وهذا يظهر بوضوح حينما تنتقل ممارسات أو أفعال معينة إلى طقوس محاطة بهالة رمزية[47].

أما بول ريكور في كتابه الذاكرة والتاريخ والنسيان فيتحدث عن سوء استعمال الذاكرة التاريخية من طرف السلطة والنتيجة هي ذاكرة يسميها ريكور بـ "الذاكرة المتلاعب بها" بمعنى أنها ذاكرة أدائية أي عوملت كأداة بحسب تعبيره، إضافة إلى هذا يمضي ريكور إلى مناقشة العامل الذي يدفع أي نظام سياسي بغض النظر عن طبيعته (ديمقراطياً أو ديكتاتورياً) كان إلى توظيف الذاكرة كأداة لشرعنة أصله وتبرير استمراره كسلطة مفروضة ضمن سياق مجتمعي ما، وهي إيديولوجيا علنية أم خفية.

معتبراً أن وظيفتها التأسيسية هي تبرير نسق نظام أو سلطة تهدف إلى إضفاء الشرعية على سلطة النظام أو الحكم

التراث في علاقته بالذاكرة والهوية:

III- علاقة التراث بالذاكرة والهوية:

1- علاقة التراث بالذاكرة:

لاشك أن التراث يمثل الذاكرة الحية للفرد وللمجتمع، ويمثل بالتالي هوية يتعرف بها الناس على شعب من الشعوب؛ كما أن التراث بقيمه الثقافية، والإجتماعية يكون مصدراً تربوياً، وعلمياً، وفنياً، وثقافياً، واجتماعياً.. ذلكم أن تراكم الخبرات يكون الحضارة، وتراكم المعلومات يكون الذاكرة وهذه الذاكرة بدورها وكما تقول الباحثة تمبل كريستين في كتابها (مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك): "... هي التي تمكننا من فهم العالم، بأن تربط بين خبرتنا الراهنة، ومعارفنا السابقة عن العالم وكيف يعمل".

ولهذه الذاكرة كما للتراث الثقافي الذي ننادي بالحفاظ عليه علاقة طردية مع الإبداع لدى الأفراد والمجتمعات. حيث أن لكل شعب موروثاته الخاصة به والتي توارثها شفهياً أو عملياً، أو عن طريق المحاكاة ... ليكون بمثابة فنون تنحت التفاعل ما بين الأفراد والجماعة والبيئة المحيطة خلال الأزمان الماضية، ومع مرور الزمن تحولت إلى إنتاج جماعي يختزل خبرات الأفراد والجماعات، وبقدر ما هو مخيال للجماعة فإنه جدار متين لحفظ الهوية ومحرك لها في الاستمرارية والوجد.

إن فقدان التراث الثقافي يعني فقدان الذاكرة ... إن الذاكرة هي التي تساعد على اتخاذ القرار، فالفرد الفاقد ذاكرته لا يستطيع أن يستدل على باب بيته، فكيف والحال هكذا أن يصنع مستقبله، ويطور ذاته، ومثلما ينطبق هذا على الفرد ينطبق على الشعوب[48].

ولأن علاقة الذاكرة والتراث علاقة متشعبة، فقد تغيرت المفاهيم في النظر إلى التراث الحضاري ومحاولة فهمه على مدى العقدين الماضيين، لتشمل مصفوفة معقدة من المعاني والقيم والمفاهيم ذات الصلة. ونتيجة لهذا التطور؛ تحول التراث الثقافي من فهمه وتجميعه بوصفه ممتلكات أو أشياء، إلى تقييمه بوصفه حالة حية يعبر عنها المكان والإستمرارية والتأثير في الأفراد والمجتمعات.... والمعروف أن التراث عامة يحتوي أشكالاً مادية وغير مادية ولكن المكون الأساسي والجامع لهذا المحتوى هو الذاكرة؛ فبدون الذاكرة يصبح كل ما يتعلق بالوقت والسرد، والاستمرارية والتغيير، والهويات الفردية والجماعية مختزلاً بكونه أشياء قديمة فقط يمكن تجميعها[49].

2- علاقة التراث بالهوية:

من خلال التعرض للمفاهيم الدلالية لكل من الهوية والتراث فإن البحث في العلاقة بينهما هو بحث بين الخصوصية والمرجع، هذه الخصوصية التي تعبر عن هويتنا لم تنشأ من فراغ، وإنما هي نتاج تجربة بأفراحها وأتراحها عاشتها المجموعة، وإشترك أفرادها في رسم صورها، وإخراجها في حلة تعبر عن هوية الأمة وما تزخر به من موروث تاريخي، يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها.

فالتراث ما هو إلا صورة حقيقية لماضي الأمة، وديوان مفاخرها وذكرياتها ومستودع تجاربها بنجاحاته وانكساراته، هو ما يوحدنا ويميزنا عن باقي الجماعات البشرية، فكل الذين يشتركون في تاريخ واحد يعتزون ويفخرون بمآثره. هم أبناء أمة واحدة وشعب واحد، وهوية واحدة، ومن تم فإن الهوية هي نتاج لحركية التاريخ في المجتمع، تتغير وتتبدل وتتطور حسب وعي الجماعي لشعوب بهذا التاريخ[50].

ونستطيع القول أن حجر الأساس في عملية التقدم الاجتماعي والحضاري لأية أمة من الأمم مرهون بمدى وعيها بتاريخها وبتراثها الذي يمثل تجارب إنسانية جاهزة، ورثتها عن أسلافها تنطلق منها نحو المستقبل، لأن المستقبل ما هو إلا الماضي، مروراً بالحاضر، والوجود الشخصي هو ثمرة لخبرات الماضي وتجاربه وأحداثه". فالتراث "ليس هو الماضي بكل ما حفل به من تطورات في المجالات جميعاً، وما شهده من أحداث تعاقبت عبر العصور، ولكنه الحاضر بكل تحولاته، والمستقبل بكل احتمالاته. إنه يمتد في حياتنا وينتقل معنا إلى المستقبل فهو جزء منا لا نستطيع الفكاك منه. وبذلك يصبح سمة أصلية من سمات الهوية، به تكتمل عناصرها وبصبغته تصطبغ."

فهو يمثل التجربة الفعلية للآباء والأجداد وما خلفوه لنا من علم وفكرٍ وحكمٍ وفلسفةٍ وشعرٍ وغيره من التجارب الإنسانية الجاهزة التي يجب علينا أن نعيها وأن تكون هي الأساس الذي يوحدنا، والمنطق الذي يحفزنا في بناء المستقبل[51].

ويذهب الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه "نحن والتراث" إلى أبعد من ذلك حيث يؤكد على أن الإنسان العربي بما في ذلك المثقف مؤطر بتراثه الذي يحتويه احتواء كلياً يفقده استقلاليته، وحريته، فهذا الإنسان تلقى ولايزال يتلقى تراثه منذ ميلاده ككلمات، ومفاهيم، كلغة وتفكير، كحكايات وخرافات وخيال، كطريقة في التعامل مع الأشياء كأسلوب في التفكير، كمعارف وحقائق ... كل ذلك بعيداً عن الروح النقدية، فهو عندما يفكر، يفكر بواسطة هذا التراث ومن خلاله، إذ يستمد منه رؤاه واستشرافاته. مما يجعل التفكير في هذه الحالة لا يعدو أن يكون تذكراً... ولذلك فالجابري يرى حتى القارئ العربي عندما يقرأ نصاً من نصوص تراثه يقرأه متذكراً لا مكتشفاً ولا متفهماً[52].

وتتجسد علاقة الهوية بالتراث أيضاً من خلال المكان والعمارة والسكنى التي تمثل التجسيد الفيزيائي لعلاقة الإنسان مع الأرض، واتصاله بها، وتكوين مفهوم الهوية والوطن والانتماء. والمكان والأشياء هما المعبر الأساسي عن الهوية عند الإنسان، بحسب ما يراه الفيلسوف الألماني "مارتن هايدغر"، "Heidegger, Martin" حيث يحتاج الإنسان برأيه إلى عناصر ملموسة ليؤكد فيها هويته والتراث الذي تمثله البيئة المبنية يتصل روحياً بالإنسان والمقصود هنا ليس فقط الجزء المبني منها بل وغير المبني كفراغات المدينة الحضرية وشوارعها وساحاتها ...[53].

ومن هنا فالفصل بين التراث والهوية هو ضرب من المستحيل "فلا هوية بدون تراث تستند إليه، ولا تراث إذا لم يؤسس للهوية. فهما عنصران متلازمان ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية، كما نجد أن الهوية في الحقيقة ما هي إلا مجموع الصفات والخصائص والمبادئ التي تتوارثها الأمة عن أسلافها عبر سيرورة واعية بها وبالتاريخ الذي جسدها وبالتراث الذي بقي شاهداً على ذكرياتها

في الختام، تتجلى أهمية دراسة تقاطعات التراث، الهوية، الذاكرة، في فهم طبيعة العلاقة المعقدة والمتشابكة التي تجمع هذه المفاهيم، حيث يشكل التراث نسيجاً حيوياً يُغذي الذاكرة الجماعية ويُرسخ الهوية الثقافية، إن هذه التقاطعات تكشف كيف أن التراث ليس مجرد موروث ثابت بل هو فضاء ديناميكي يتفاعل مع الثقافة والذاكرة لِيُنتج هوية متجددة ومتطورة. بالتالي، فإن دراسة هذه التقاطعات تساعد على استشراف آفاق جديدة للحفاظ على التراث وتوظيفه كرافد أساسي في بناء حاضر ومستقبل الثقافات والأمم.

الهوامش:

[1]– ابن منظور، "**لسان العرب**،" تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، بيروت لبنان، ط 3، الجزء 15 (باب الواو)، ص266-267.

[2]– القرآن الكريم، سورة الفجر، الآية 17.

[3]– القرآن الكريم، سورة مريم، الآية 6.

[4]– الجابري (محمد عابد) "التراث والحداثة"، دراسات ومناقشات مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، بيروت 2011، ص21.

[5]– ابن نعيجة، (نور الدين)، "الهوية الوطنية والموروث الثقافي التاريخي وتحديات العولمة والرقمنة"، مجلة الباحث العدد 18، 2017.

[6]– جمعة محمد (علي، "الطريق إلى التراث الإسلامي: مقدمات ومداخل منهجية"، نهضة مصر، ط3، القاهرة 2007، ص18-19.

[7]– أو مليل (علي)، "في التراث والتجاور"، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1990، ص166.

[8]– حنفى (حسن)، ماذا يعني علم الإستغراب، دار الهادي، بيروت 2000، ص13.

[9]– محمد عبد المجيد ابراهيم (حنان)، "الحداثة العربية بين القطيعة مع التراث والاستلاب الثقافي" ضمن كتاب: الحداثة والهوية الثقافية أية علاقة؟ تنسيق عكاشة بن المصطفى، منشورات مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة ط 1، وجدة 2014، ص374.

[10]– اتفاقية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، أقرها المؤتمر العام 4 في دورته السابعة عشرة، 16 نونبر 1972، ص4
http://whc.unesco.org/fr/comvontiontext(arabic)

[11]– اتفاقية بشأن حماية التراث الثقافي غير المادي، باريس 17 أكتوبر 2003، ص2.

[12]– بن نعيجة (نور الدين) "الهوية الوطنية بين الموروث التاريخي وتحديث العولمة والرقمنة"، مجلة الباحث / العدد 18، ص 112.

[13]– المرجع نفسه، ص112.

[14]– حول خطاب الهوية بالمغرب (أشغال الندوة الوطنية المتعقدة في إطار ربيع الرباط للثقافة الأمازيغية مارس 2006)، البوكيلي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القنيطرة 2007، ص5.

[15]– (حسن حمدي) المحروقي، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية، دراسات في التعليم الجامعية، جامعة عين شمس، كلية التربية، ص164.

[16]– (عابد الجابري محمد) العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، مجلة فكر ونقد، العدد السادس، دس، ص2.

[17]- Larousse de la langue français, Bordas, 1972.

[18]– (جبور) عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط 1، بيروت، 1979، ص117.

[19]– صليبي (جميل) المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت، 1971، ص591.

[20]– الطاهري (عبد العزيز)، "الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الإستعمارية (1912-1956)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة 2016، ص24.

[21]– المرجع نفسه، ص24.

[22]– المرجع نفسه، ص24-25.

[23]– المرجع نفسه، ص25.

[24]- Henri BERGSON. Matière et mémoire, puF, paris, 60° ed, 1959, P. 167.

[25]– (بول) ريكور، "كتابة التاريخ وتمثل الماضي"، ترجمة محمد حبيدة، ونشره في:
من أجل تاريخ إشكالي ترجمات مختارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005، ص170.

[26]- Paul RICOEBUR, la Mémoire l'Histoire. l'oubli, Editions du Seuil, Paris 2000, P. 34.

[27]- Marc BLOCH, L'Histoire - la Guerre. la résistance Quarto Gallimard, France, 2006, p340.

[28]– (بول) ريكور، "كتابة التاريخ وتمثل الماضي"، مرجع سابق، ص170.

[29]– معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، م س، ص348.

[30]- Henri, BERGSON. op. cit, p82.

[31]- Ibid, p. 96.

[32]- Ibid. P82.

[33]– معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، م س، ص249.

[34]– (عبد العزيز) الطاهري، "**الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية (1912-1956)**"، م س، ص28.

[35]– (بول) ريكور، م .س، ص166.

[36]- paul RICOEUR, op. citi p33.

[37]- paul RICOEUR, op. cit, p.112.

[38]– (إدموند) هيو سول، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة أحمد الصادقي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، ط 1، 2009، ص52.

[39]–(بول) ريكور، كتابة التاريخ وتمثل الماضي، م.س، ص168.

[40]– م.س، ص169.

[41]– (عبد العزيز) الطاهري، الذاكرة والتاريخ، م. س، ص31.

[42]– نفسه، ص،32.

[43]– نفسه، ص117.

[44]– (عواطف) علي خريسان، السلطة والهوية وتشكيل الذاكرة الجمعية، مجلة الإناسة وعلوم المجتمع، العدد 66، 2019، ص121-122.

[45]– نفسه، ص121.

[46]– نفسه، ص121.

[47]–

[48]– خلف (بشير) "التراث والهوية .. التماهي والتكامل"، ديوان العرب، 2010diwanalarab.com.

[49]– النجار، (سونيا)، "التراث المعماري والعمراني: الذاكرة والوعي والهوية"، مجلة أفكار، العدد (391)، ص81-91.

http://www.afkar. Jo/View ArticleAn.xsp.x?Issue = 20:36&type=2&TD=3635

[50]– بن نعيجة، (نور الدين)، "الهوية الوطنية بين الموروث التاريخي والعولمة والرقمنة"، مجلة الباحث، العدد 18، 2017، ص113.

[51]– بن نعيجة، (نور الدين)، المرجع نفسه، ص113-114.

[52]– الجابري، (محمد عابد)، "نحن والتراث"، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 6، 1993.

[53]– النجار، (سونيا)، "**التراث المعماري والعمراني: الذاكرة والوعي والهوية**"، مجلة أفكار، العدد (391)، 2021، ص81-91.